مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية المجلد 14(العدد 2) 1412 هـ-1992م.

# ابن عبدون وقصيدته الرّائية "البسّامة"

الدكتور حسين يوسف خريوش
قسم اللغة العربية
جامعة اليرموك
اربد / الأردن

*تنطوي هذه الدراسة على قراءة مستأنية، لقصيدة ابن عبدون "البسامة" ، بحيث لا تتوقف عند حدود الشرح والتوضيح، ولا الفهم الحرفي للنص، وإنما تجهد إلى معرفة النص الدلالية، والاحاطة به جملة، أو أجزاء، مع محاولة التوثيق، والربط بين أجواء المرثية، وما يشابهها، أو يخالفها من نصوص مماثلة.*

*وأؤكد كذلك، أنّ البحث متصل بروح المرثية، وليس بحقيقة التاريخ، الذي يشكل جانبا مهما من جوانبها، ولكني سأحاول " فكّ رموز" لغة الشعر التاريخي، و "تأويلها" في مضمونها من القصيدة، ذلك أن نظرة ابن عبدون، تمثل في الأساس نظرة علمية جوهرية، ترى في الاطار التاريخي، حلقة ممتدة لوجود الإنسان، بمعنى أن استكناه الفعل الإنساني، الذي يجسده التاريخ، سيؤول في النهاية إلى النظرة الكلية للوجود، وهذه النظرة، تلتقي مع النظرة الفلسفية، التي تميل إلى جبرية الإنسان، وإرادته على الأرض.*

# Ibn Abdon and his poen: AL- Ra'iyah "AL-Bassama"

Dr. Hussain Y.Khrawish.
Yarmouk University
Irbid - Jordan

***This study contains a careful reading of IBN ABDON'S POEM: AL- RA'IYAH. It does not stop at the limits of explanation and illustration, noris it limited by the literal understanding of the text, but it strives to reach at the connotative knowledge of the text and encompass it wholly or in parts. It also attempts to connect the context of the poem and other similar and different texts.***

***I also assert that the investigation is connected to the spirit of the poem,not to the reality of the historical events, which form one its important aspects. But I will try to " decipher " or " decode " the language of Historical poetry and " construe " it as implied by the poem; since IBN ABDON'S view is basically a fundamental scientific one whih views the historical feame as an extending link of the human presence.***

مقدمة :

إذا أردنا أن نفهم قصيدة ابن عبدون "البسّامة" "في رثاء بني المظفر"، كما كانت تفهم في عصورها السابقة، فليس يكفينا أن نجمع ما عرف عن حياة ناظمها، وتناول شرحها، كما جمعه عبد الملك بن بدرون (1) في تأليف بعينه، فَشَرْحُ القصيدة، لم يكن إلا جزءا من الحركة النقدية الواسعة، التي كانت تشمل كثيرا من الشروح. وإذاً، فلا بد من بحث البيئة الثقافية التي أحاطت بابن عبدون ومرثيته، قبل أن نبحث حياته وثقافته بوجه خاص، ثم علينا أن ننتفع بهذين البحثين معا، في دراسةٍ نصية للمرثية، تُوضّح لنا بأسلوبها، ويُستعان بها على فهم معانيها، أي إننا سنبحث عن الخصائص الفنية من منظور اللغة وتراكيبها، باستخدام وسائل فكرية، فضلا عن التزامنا المنهجي بالرؤية التاريخية فيها، ومن ثم تتنزل محاور هذا البحث منازلها، فيكون منها ما هو انساني خاص بابن عبدون، وما هو خاص يتمثل بمطولته "البسّامة" لغةً وإبداعا، ولتوضيح هذا الاتجاه، نذكر حقيقتين جوهريتين:

أولهما: إن القصيدة تُسّجل المتغيرات في رؤيتها التاريخية، أما الحقيقة الثانية، فهي أن القصيدة، تُسّجل أيضا الثوابت القيمية التي تتمثل ببني المظفر، الذين هم المحور الأساسي في فكر الشاعر، وهذه الحقيقة الثانية، تبدو مناقضة للحقيقة الأولى، ولكن كلتا الحقيقتين، تنزعان نزوعا موحدا يوافق العقل والأحوال النفسية للشاعر، لأن القصيدة كانت تحاكي تجارب الشاعر وترمز اليها.

## - 1 -

أولا: حول ابن عبدون:

ظلّ أهل الأندلس — إلى وقت متأخر نسبيا - يرجعون في كثير من أخبارهم إلى أهل المشرق، وقد غاظ ذلك منهم ابنَ بسام (ت 542 هجرية)، فعمل على تأليف كتابه المعروف "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، غير أن هذه المحاولة، في إبراز شخصية الأندلس، لم تُلْغِ هذا الاعتداد بالشخصية المشرقية، حتى عند ابن بسام نفسه، وظل ابن بسام يذكر أهل المشرق ائتساءً بهم (2)، كلما عرض له عارض سواء في مناحي الاتباع أو الابتداع على حد سواء.

نقول هذا، لأنه يُحكى أن الصاحب بن عباد، كثيرا ما كان يقول(3): "*كُتّاب الدنيا وبلغاء العصر، أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم بن يوسف(4)، وأبو اسحاق الصابي، ولو شئت، لقلت الرابع، يعني نفسه*"؛ ومن هنا، فقد اعتقد ابن بسام هو أيضا- تَذَكّراً بقَوْل الصاحب هذا – أن "كتّاب العصر ورؤساء النثر - في الأندلس - أربعة:

كلاعيان وفهريّان. أما الكلاعيان: فأبو بكر بن القصيرة(5)، وأبو محمد بن عبد الغفور(6). وأما الفهريان: فأبو القاسم بن الجد(7)، وأبو محمد بن عبدون"(8).

وأبو محمد بن عبدون ـ موضوع البحث ـ، قد امتدت به الانساب الى أوقاتٍ متأخرة، وتأكّدت له المكانة بين أهل العصر، يقول ابن بسّام في ترجمته (9):*"وأبو محمد هذا في وقتنا سر الدهر المكتوم، وشرف فهر الحديث والقديم(10)، لسان صدقها في الآخرين، وقَمَرُ أفقها الذي ملأ الصدور والعيون، وديوان علمها المذال والمصون"*، وقد توفرت على ترجمته أمهات المصادر الأندلسية والمشرقية، فقلما تخلو مجلّدة من ترجمته والإشارة إلى مخلدته في رثاء بني المظفر، على ما سيأتي الحديث عليه في موضعه من البحث، فهذه التراجم(11) تكاد تجمع على خِلالِهِ التي اجتمعت فيه، كالوزارة والفقه واللغة والنحو والعلم، فضلاً عما له من المناقب والأحساب الشهيرة، فالقدماء يذكرونه بأبي محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري اليابري(12)، نسبة إلى "مدينة يابرة(13) المشهورة في المملكة البطليوسية، وكثيرا ما يذكرها ابن عبدون في شعره"(14) وقد خصّها ابن سعيد بكتاب خاصّ، وشّحه باسمها، سمّاه: "الروضة المزهرة في حُلى مدينة يابرة"، وهو الكتاب الخامس، ضمن الكتب التي يحتوي عليها غرب الأندلس.

**شيوخه وثقافته.**

لابد أنه قد درس العلوم الدينية، لأن آثاره العلمية الباقية تتمثل هذه النزعة، وكذلك درس العلوم التاريخية، فقد "روى عن أبي الحجاج الأعلم(15)، وأبي بكر عاصم بن أيوب(16)، وأبي مروان بن سراج(17) وغيرهم. وله كتاب في نُصرة أبي عبيد على ابن قتيبة. وكان أديباً مقدماً، شاعرا(18)، عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث، أخذ الناسُ عنه"(19).

وطبيعي أن لا تنحصر تلمذته على هؤلاء الأشياخ الثلاثة، وإنما لنا أن نتصور احتمالاتٍ كثيرة، واتجاهات مختلفة تقف هذه اللفظة "وغيرهم" وراءها، فالرجل يستكثر في الأخذ إلى الحد الذي يوائم قدراته العلمية. يقول عنه صاحب القلائد(20): مُنتهى الأعيان، ومُنتهى البيان، المطاول لسَحْبان، والمعارض لصَعْصَعَة بن صوحان، الذي أطلع الكلام زاهراً، ونزع فيه منزعاً باهراً، نُخبةُ العلاء، وبقيّة أهل الاملاء، الشّامخ الرتبة، العالي الهضبة، فاق الأفراد، والأفذاذ، ومشى في طرق الابداع، الوَخْدَ و الإغذاذ".

وينعته عبد الواحد المراكشي *"بالوزير الكاتب الأبرع، ذي الوزارتين(21)، فهو على التحقيق، وزير بني المظفر وكاتبهم، إذ كان ذا حظوة كبيرة لدى الملك المظفري المتوكل، وأبلغُ شاهدٍ على ذلك، مصاحبته له في رحلاته وتنقلاته"* (22)

فقد كان عالما وحافظا غير أن العلم والحفظ، لا يحيطان بحياة ابن عبدون، كما يحيط بها جانب الحكمة التاريخية ـ على ما سنذكره في موضعه ـ، أو جانب الواقع الذي يمتزج فيه بحسه وشاعريته، فهو "العالم الأوحد"(23) و "الوزير المستبحر في جميع الفنون"(24)، و"الوزير الفقيه اللغوي النحوي العالم، ومن له المناقبة والأحساب الشهيرة والمكارم، بحر العلم الزاخر، وفخر الأوائل والأواخر، الذي يهتدي بنجم فضله المهتدون"(25)، وهو"أديب الأندلس وحافظها"(26)، "اشتهر بتلك الأقطار شهرة الأمثال، وسار ذكره سَيْر الجنوب والشمال"(27).

وكان يتمتع بقدرة كبيرة على التعلم والصناعة، فكان أوسع أهل زمانه معرفة باللغة وآدابها، ومن الأمثلة على هذا الاهتمام اللغوي، ما كان يمتحن فيه نفسه في جمع حروف الزيادة، يقول:(28) *سألت الحروف الزائدات عن اسمها فقالت ولم تكتب: أمان وتسهيل*. وقيل انه كان يحفظ كتاب الأغاني، وأن هذا الكتاب أيسر محفوظاته، وروى (المراكشي) صاحب (المعجب) من غزارة حفظه ـ رحمه الله ـ ما حدث الوزير أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر ـ وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية، نيف على الثمانين ـ وملخص الرواية، أن ابن عبدون، لما حيل بينه وبين الوزير أبي مروان ـ لأن القائمين على بابه استجهلوه، فلم يعرفوه ـ أبدى لهم استغفالا، كما هو الحال في مثل هذه الروايات، عندما طلب اليهم أن يمتحنوه في استظهار كتاب الأغاني، فهالهم بقوة حفظه (فوالله ان أخطأ واوا ولا فاء، قرأ هكذا نحوا من كراستين، ثم أخذوا له في وسط السفر وآخره، فرأوا حفظه في ذلك كله سواء)(30)، فلما أخبروا الوزير أبا مروان بالخبر ووصفوا له حاله(قام كما هو من فوره، وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص...حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه، ويقول: يامولاي، اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا الجلف الا الساعة، وجعل يسبه، وابن عبدون يخفض عليه ويقول: هبه ما عرفك، فما عذره في حسن الأدب...، فلما انفصل، قلت لأبي ـ يعني أبا مروان ـ: من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟ قال لي: اسكت، ويحك! هذاأديب الأندلس، وامامها وسيدها في علم الآداب، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟)(31)، فاذا نحينا جانبا المبالغة في أمثال هذه الروايات، أدركنا القوة، والقدرة النادرة على الحفظ والاستظهار، من اللغة والعلم في شخصية ابن عبدون.

ولا تكفي المعلومات المتوافرة في مراجع ترجمته على كثرتها ووفرتها، في

تصوير شخصيته تصويرا كاملا، بل لا بد في ذلك من الاستعانة بأشعاره ورسائله، لتوضيح هذه الشخصية، فلم تبلغنا آثاره العلمية الأخرى من كتب ومؤلفات، وكذلك لم يصل الينا ديوانه الشعري الذي يكون مجالا رحبا لتلك الشخصية.

فهو لا يخلو من البساط، وخاصة مع المتوكل نفسه، فقد( توجه - المتوكل - الى شنترين، ومعه أبو محمد بن عبدون، فتلقاه ابن مقانا قاضي حضرته، وأنزله وقدم طعاما، ثم قعد بباب المجلس ملازما له الى الليل، والمتوكل محتشم منه. فخرج أبو محمد - لما أبرمه - الى بعض أصحابه، وقد أعد له مجلس أنس، فقعد يشرب معه، وقد وجه من يرقب انفصال ابن مقانا، فلما عرفه بذلك بعث الى المتوكل بقطيع خمر وطبق ورد، وكتب معها:

*إليكها فاجتلها منيرة*
*وقد خبا حتى الشهاب الثاقب*
*واقفة بالباب لم تأذن لها*
*الا وقد كاد ينام الحاجب*
*فبعضها من المخاف جامد*
*وبعضها من الحياء ذائب*

فقبلها وكتب اليه:

*قد وصلت تلك التي زففتها*
*بكرا، وقد شابت لها ذوائب*
*فهَبْ حتى نسترد ذاهبا*
*من أنسنا، ان استرد الذاهب*(32)

أما شخصيته، كما تظهرها أشعاره وكتابته، فانها تتجلى في قوة منهجه، ونفاذ بصيرته، وكذلك في احاطته بمصادر كثيرة قيمة (لا يناهضه في هذا الباب أحد من الكتاب)(33)، مما جعل العلماء في عصره، يخطبون وده(34). يروي أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، أن والده، كاتبه، عندما ورد اشبيلية(فأبطأعنه الجواب، وقد كان اقتضاه الكتاب، فكتب ثانية اليه، وقد ورد جوابه بعد حين من أيدي الناس عليه، بقصيدة يقول فيها:

*سألت منه بكانون دواء هوى*
*فجاءني بعد برء عقب تشرين*
*كأنني قد زففت البكر من كلم*
*ماتت عليه وحاشاه لعنين*

فقلق أبو محمد - أكرمه الله - من هذا البيت، وجاوب بما كاد أن يؤدي الى ذكر الميت، فكان ما كان، مما أغضب عليه عين الحسب - يعني والده -، وتحملته أخوة الأدب، فهما الآن - ولله الحمد - رضيعا صفاء، وحليفا اخاء، واليفا صدق ووفاء)(35).

وخاطب ابن عبدون الوزير أبا العلاء، زهر بن عبد الملك، يخطب وده، فتخلف عن جوابه، لشغل عرض، فأعاد عليه ثانية بهذه الأبيات(36):

*نصيبي من الدنيا مودة ماجد*
*أهيم به سرا وأخدمه جهرا*
*له الخير ان يأذن أقل غير عاذل*
*وان يأب اسكت عنه لا طالبا عذرا*

خطبت اليه من هواه عقيلـــــــة
وأعطيت من شكري وأغلى به مهرا

فأجابه الوزير أبو العلاء:(37):

وفاؤك ما أسنى وفضلك مـــا أسرى
ومجدك ما أسمى وزنـــدك ما أورى
إذا رمت نثرا جئت بالسحر ناثـــرا
وان حكت شعرا جئت بالآية الكبرى

وقال ابن عبدون، يخاطب أبا الحكم عمرو بن مذحج بن حزم: (38)

ياعمرو رد على الصدور قلوبها
من غير تقطيع ولا تحريـــــق
وأدر علينا من خلالك أكوســـا
لم تألُ تسكرنا بغير رحيـــــق

وكتب اليه ابن عبدون:

سلام كما هبت من المُزْنِ نفحـــــة
تنفس عند الفجر في وجهها الزهر

فأجابه من أبيات(39):

تحير ذهني في مجاري صفاتـــــه
فلم أدر، شعر ما به فهت أم سحر؟
أرى الدهر أعطاك التقدم في العلى
وان كان قد والى أخيرا بك الدهـــر
لئن حازت الدنيا بك الفضل آخـــرا
ففي أخريات الليل ينبلج الفجـــــر

- 2 -

ومن جوانب شخصيته كذلك، أنـه كـان حاضر الجـواب، متقـد الخـاطر، يستشـعر النادرة، فمن ظرف جوابه، أنه عند اجتماعـه بعلي بن بسام (صاحب الذخيرة المتوفى سنة 542 هـ)، أول لقائه له بشنترين، فسمع بعض الأخوان يدعونه باسمه ـ علي بن بسام ـ فقال له: *أنت حقا علي بن بسام؟*(40)، قال: *نعم*، قال: *وتهجو حتى الآن أباك أبا جعفر، وأخاك جعفرا*، فقال له: *كلاك الله! وأنت عبد المجيد؟* قال: *نعم*. قال: *ويتغزل فيك حتى الآن ابن منافر*(41)؟. فضحك من حضر لهذا الجواب الحاضر.

ومع أن ابن عبدون، اتخذ من بابرة وبطليوس مقرا له فترة طويلة من حياته، فانه كان يرتحل عنهما الى بلاد أخرى في الأندلس، يرتاد مواطن العلم والعلماء، ثم يعود اليهما، فقد(رحل الى المعتمد العبادي باشبيلية، فكأنه لم يجد قبولا، ولا وافق رأيا جميلا، وأراه انما أتى من ازورار جانبه، وبعد مطالبه)(42)، ولكنا لا ندري ما وراء هذا الارتحال ولا زمانه، وأغلب الظن، أنه فرار من بابرة وجوها الضيق المحدود، فقد ضجر من سكنى وطنه بابرة، وهو يكرر هذا في شعره، كقوله:(43):

أنا يا بن سيفي يعرب سيفك الذي
اذا شمته لم يثب واخبره تعلـــم
هجرت اليك الأقربين مهاجـــرا
ولم أرض أرضا كل ساكنها عـــم
فعار على العلياء سكناي بلـــدة
كبلدة عالي الأفق من دون أنجم(44)
فلو أن غيلانا حوته ديارهـــا
تنقى بمي بينهم غير معجـــم(45)

غير (أنه لما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس، وطوى الشعر على غرة) آثر بلدته بابرة(يرتشف فضل ثماده، ويأكل من بقية زاده)(46).

- 3 -

الإنتقال الى المرابطين:

لم يكن ابن عبدون، بمنأى عن أهل عصره، ذوي النفوذ والسلطان، فهو عالم ومحدث وفقيه، ولاشك أنه أفاد من هذه العلوم ووظفها في خدمة هؤلاء، فقد عول من ملوك الطوائف على رئيس بلده المتوكل،(فعليه نثر دره الثمين، وباسمه حبر وشيه المصون)(47).

وقد أعقب هذه المكانة، حملة شديدة، أدت به الى أن يرحل الى المعتمد بن عباد، على ما ذكرناه، غير أن تقلب الموازين، وتغير الأذواق والأهواء، وتبدل الأساليب، لم تستطع أن تسلب ابن عبدون مكانته، أو تجرده من عبقريته، فمكانته بين الكتاب والمؤرخين في العصر المرابطي، لا تزال عالية، وذكراه لا تزال باقية في النفوس، وليس أدل على ذلك من الرسائل الأدبية - الرسمية والإخوانية - التي كانت تصدر عنه، وخاصة رسالتيه اللتين أوردهما صاحب كتاب المعجب(48)، وهما تتناولان نواحي أدبه ونتاجه الغزير، وجوانب شخصيته المتعددة، وفي ذلك يقول المراكشي في كتابه(المعجب):( وكان أبو محمد هذا يكتب للمتوكل على الله، ونمت حاله معه، وهو أحد كتاب المغرب، وممن جمع منهم فضيلتي الكتابة والشعر، على أنه مقل من النظم، لم يثبت له منه الا يسير، بالنسبة الى غزارة آدابه، ونباهة قدره)(49).

وكتب بعد ذلك، لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، بعد أبي بكر بن القصيرة، أحد رجال الفصاحة - وهو من كتاب المعتمد -، وكان ابن عبدون يكتب للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين، وهو الذي دخل على المعتمد على الله اشبيلية(50)، فلم يزل يكتب له، الى أن اتصل بأمير المسلمين باستدعاء منه له.

وحياة ابن عبدون، لم تتخللها أحداث خارجية عظيمة، الا حادثة زوال دولة بني المظفر، - كما سيأتي الحديث بعد -، التي أعقبها قصيدته التي نحن بصددها، وأما حياته الأخرى، فهي تكاد مقصورة على كتاباته الفكرية ورسائله الأدبية، والمؤلفات التي استأثرت جهده واستغرقت وقته.

- 2 -

ثانيا: الجانب الشعري:

أولا: واقع جمهرة الشعراء:

لقد خيل الى جمهرة الشعراء الأندلسيين في القرن الخامس الهجري

(5هـ/11م) في أكثر عهود الأندلس مأسوية، أنهم يرون في واقعهم المادي، فوضى مفجعة، اختل نظامها الطبيعي، كـ(ابن اللبانة) مثلا، فانه يؤمن بأنه(لكل شيء من الأشياء ميقات)(51)، وهو المعنى الذي تردد في(تونية) أبي البقاء الرندي (لكل شيء اذا ما تم نقصان)(52)، وكذلك فان ابن حمديس الصقلي يستشعر التغير المفاجيء الذي أصابه بزوال بني عباد(سنة484هـ) على يد المرابطين، بأنه الفاجعة الكبرى، كقوله:

*ولما رحلتم بالندى في أكفكم*

*وقلقل رضوى منكم وثبير*

*رفعت لساني بالقيامة قد أتت:*

*ألا فانظروا هذي الجبال تسير* (54)

ومنهم من حاول كالفقيه الزاهد ابن العسال، أن يشيد بالرمز المتجسد في أبيات من الشعر، هاجسا ينذر بالنهاية الفاجعة، وذلك بعد سقوط طليطلة(سنة 478هـ) بيد الفونسو، وكان لذلك تحول تاريخي واضح اتبع استقدام المرابطين، يقول:

*يا أهل أندلس شدوا مطيكم*

*فما المقام بها الا من الغلط*

*الثوب ينسل من أطرافه وأرى*

*ثوب الجزيرة منسولا من الوسط*

*من جاور الشر لا يأمن عواقبه*

*كيف الحياة مع الحيات في سَقَطِ؟* (55)

ومنهم من استخدم هذا الفن كما استخدمه(الشاعر المجهول) في رثاء طليطلة، ليصوروا واقعا مأسويا، شديد الخوف والندم، كقوله:

*لتُبْكِ كيف تبتسم الثغور*

*سرور بعدما سُبيَت ثغور ؟*

*أما وأبي مصاب هُدَّ منه*

*ثبير الدين، فانصل الثبور* (56)

ولكن ثمة الى جانب هؤلاء الشعراء جميعا،طائفة قليلة، كـ(ابن عبدون) أبي محمد عبد المجيد، قد التزم في فنه الشعري، ـ وخاصة المرثية التي نحن بصددها ـ التعبير عن قيم الخير والحق والجمال، وتقديمها للناس، على أنها القيم المتمثلة في بني المظفر، بيد أنه لم يبق لنا من آثاره في الشعر غير هذه القصيدة(الرائية)، وقصيدته الأخرى(الدالية)(57)، والأشعار المتفرقة المبثوثة في مصادر ترجمته.

- 1 -

القصيدة:

نظم ابن عبدون القصيدتين ـ الدالية والرائية ـ أو ما شابههما من المنظومات، اعتقادامنه أنه مادام الفن الرثائي واحدا، فيلزم من ذلك أن قصة بني المظفر واحدة، ولكن ابن عبدون، يبدو هنا ـ كما امتاز في مرثيته الدالية وسائر أشعاره ـ صائب النظر، اما صناعة أو فطرة، يقول ابن بسام:( ومنهم الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون، أحد الزعماء في صناعة الشعر والنثر، وثبوت القدم في

الأدب...)[58]. فهو حين نظم(البسامة) لم ينظم كل ما اتفق لبني المظفر، ولكنه نظمها، حول فعل واحد، على ما سيأتي ذكره، وكذلك صنع(بالمرثية الدالية) في رثاء إخواني .

إن ما ستتناوله القصيدة(الرائية)، هو موضوع فلسفي وتاريخي ومأسوي في طبيعته، والشخصيات الرئيسية في القصيدة هذه، هي المتوكل وابناه الفضل والعباس.

إن ما يؤكده ابن عبدون في مقدمة قصيدته، هو نفي الحقيقة الحياتية بكل معانيها الجمالية المتمثلة بلفظة(العين)، واثبات(العدمية) المتمثلة بألفاظ(الأشباح والصور)، وهو بذلك ينفي ببساطة، امكانية أن يستشعر الانسان أي معنى جمالي، لأنه ليس بالمقدور أن(ينام المرء بين ناب الليث والظفر) كما يقول، فليس هناك إطباق الشر، وان فلسفة التنوع التي ينتهجها الشاعر في هذه المقدمة، يلغي مبدأ التطابق الحياتي الذي يسعى لتوكيده. يقول[59]:

*(1) الدهر يفجع بعد العين بالأثر*
*فما البكاء على الأشباح والصور؟*
*(2) أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة*
*عن نومة بين ناب الليث والظفر*
*(3) فالدهر حرب وان أبدى مسالمة*
*والبيض والسود مثل البيض والسمر*
*(4) ولا هوادة بين الرأس تأخذه*
*يد الضراب وبين الصارم الذكر*
*(5) فلا تغرنك من دنياك نومتها*
*فما صناعة عينيها سوى السهر*
*(6) ماالليالي أقال الله عثرتها*
*من الليالي وخانتها يد الغير*
*(7) في كل حين لها في كل جارحة*
*منا جراح وان زاغت عن النظر*
*(8) تسر بالشيء لكن كي تغربه*
*كالايم ثار الى الجاني من الزهر*

قد يكون من العقم ، أن نتساءل، فيما اذا كان ابن عبدون يقصد بهذه الأبيات، أن يجعل من امكانية استشعار الحياة قابلة للتأمل أو النقاش، كما أن أبياته، ما كانت لتهدف الى نفي مثل هذه الامكانية فقط، بل انه كل ما اشتملت عليه من معنى، وحاولت أن تستشرفه، ذلك أنه أبان بمعان وألفاظ غاية في التحديد والوضوح، أنه يستحيل وضع الأشياء المتناقضة، بعضها مع بعض، (فالدهر يفجع بعد العين بالأثر)، و(الدهر حرب وان أبدى مسالمة)، فهو بهذه الاستخدامات اللفظية المتقابلة، (العين والأثر، والحرب والمسالمة، والبيض والسمر)، كأنما يلغي (حرية الاختيار)، كما سيتضح بعد.

فالتاريخ يحدثنا، بأن المرابطين، قد اتخذوا قرارا اراديا قاسيا، وان ما انتهى اليه بنو المظفر، كان الضرورة الحتمية، المتمثلة باستنزال ملوك الطوائف واستئصالهم، فكيف يمكن للشاعر أن يوائم بين هاتين الحقيقيتين؟

وقد سبقت وجهة النظر هذه في احدى مراثي الشاعر ابن اللبانة لبني عباد، اثر خضوعهم للمرابطين، وهي مرثيته التالية:(60)

*لكل شيء من الأشياء ميقات*

*وللمنى من مناياهن غايات*

وهو المعنى نفسه الذي تكرر مرة اثر أخرى، في احدى مراثي الشاعر عبد الجليل بن وهبون للأستاذ الأعلم الشنتمري:(61)

*نفسي وجسمي ان وصفتهما معا*

*آلٌ يذوب وصخرة خلقاء*

هذا الاحساس الشعري عند هؤلاء الشعراء وغيرهم من معاصريهم، يفتق قضية كبرى، تحاول أن تثبت أن المرء لم يكن ليملك خيارا آخر أمام (الضرورة الكونية)، وان من يتصرف حسبما تمليه الضرورة، لا يتصرف طواعية، وانما هو حكم العدالة الذي تفرضه ارادة القوة الالهية.

ولكن هذا التبسيط الذي نحاول أن نسلكه في هذه القصيدة، لا يعني بأنه ليس ثمة فلسفة لدى الشاعر، قد أضاءت تصوره للأشياء، ليس هذا هو المهم، بل يكفينا أن نستذكر أن(ذكاء خاطره وجودة قريحته) كانا القوة النافذة في أعماق الماضي، وآفاق الآتي، ولذلك يصح القول، بأن القصيدة ليست فلسفية، بالمعنى الجوهري للفلسفة، ولكن ثمة معاني واضحة ومهمة، اذا ما أنعمنا فيها النظر، سنتمثل فيها الكثير من معاني الفلسفة التي تصور وجود الأشياء ونهاياتها، وتلك هي أهم خصائص هذه القصيدة الرثائية.

لاشك، في ان الشاعر استطاع أن يستوقف القارىء وهويبحث هذه المسألة ـ مسألة وجود بني المظفر وزوالهم ـ عبر ثلاث فقر أساسية، فهو شاعر أخلاقي، يناقش القارىء ويسعى الى اقناعه، لكي تكون الفضيلة غاية طموحه، ويؤكد له أن مجال الحرية الوحيد، الذي بوسعه أن يأمل نشدانه، انما هو(ضرورة الواقع)، ثم المؤرخ الذي يستوحي التاريخ، ويعيش في أحداثه الماضية ـ ولذلك فلسفة ستتضح بعد ـ، وأخيرا، هو الأديب الشاعر، الذي يرثي ويمدح، ولكن برؤية خاصة، نحاول أن نستكشف أساليبها، فيما يجيء من صفحات البحث.

## المقدمة التأملية:

قد يقال، ان هذه(المقدمة التأملية)، لا تخرج عن الاطار الأخلاقي (الوعظي)، وبالمعنى نفسه، يمكن أن يقال، ان ابن عبدون، ليس لديه (سيكولوجية) محددة، وعلى نحو مشابه، لاتتوفر هذه المقدمة على أفكار فلسفية، الا أن ذلك، ليس يعني أن خيال الشاعر بعيد عن الخلق والابتكار، وتناول الأشياء، أو أن شاعريته لا تمت بصلة الى مشكلات للانسان وآماله.

ليس يخفى، أن الزمان(الدهر)

بأبعاده الماضية والحاضرة، قد استوقفاه وهو يبحث في المجالات الأخرى (كالجمالية) و(العدمية)، وعندما نتأمل هاتين الحقيقيتين، وننظر اليهما بوضوح، نجدهما فلسفة حقيقية، فهاتان الحقيقيتان: الحياة والموت، هما من مستلزمات الدهر، اللفظة الأساسية في القصيدة، التي عليها مدار الابداع فيها، فالشاعر، يحاول أن ينفذ الى مشكلة فلسفية أزلية، تؤكد الاعتقاد بأن الخير والشر، ماثلان أمام كل انسان، وهو حر في اختيار أي منهما، وتبقى مسؤولية الاختيار على عاتقه.

أما الاعتقاد الجبري، فهو الأساس الذي يسيطر على أجواء القصيدة الرثائية، يكاد لا يغادر ذهن ابن عبدون أيضا، فالبعد الذي يجسده هذا المعتقد، وهو أن ثمة أسبابا ـ خارجية أخرى داخلية ـ هي التي توجه أفعال المرء، وليس له أي سلطان عليها، ولذا، فالانسان لا يملك أي توجه ذاتي، أو أخلاقي مهما كان.

أقول: ان هذا المعنى الفلسفي ـ مثلما لم يغادر ذهن ابن عبدون ـ هوالذي ظل يسيطر على الشعراء في هذه الفترة، وهم يبحثون في المجالات الأخرى، كالأخلاق والأدب والحياة.

وعلى الجملة، فالمهم هو القصيدة بكليتها، فانها تبدو وحدة متماسكة، يؤلف بين أجزائها ـ على طولها ـ ايقاع واحد متناغم، كانت مقدمتها التأملية مهادا طبيعيا لبنية الشاعر الفكرية، فموضوع المادة الفكرية، التي هي المقدمة التأملية، التي يتكون منها الأثر الفني، غير موضوع الوحدة الثانية ـ التراث التاريخي الحضاري ـ الذي هو الشكل الذي يتقمصه، فان الموضوعين، متلازمان في البنية، تلازما عضويا لا انقطاع بين مقوماته.

هذا الاتصال، أو الالتقاء بين وحدتي القصيدة ـ المقدمة والتاريخ ـ يقتضي ايصالهما بالوحدة الثالثة، التي هي الحالة الشعورية للشاعر في بنيتها الحية، ويرسلها في موكب المستويات الثلاثة، للتمكن من اعادة خلق الأثر، بمعادلة بني المظفر الذين هم الأساس، وبذلك ينشأ الاتصال بين الأجزاء الثلاثة: المعنى الذهني، والعمق التاريخي، والحالة الشعورية، ضمن عملية تنظيم واعادة توازن.

- 1 -

**الشاعر والمؤرخ:**

أمكن للشاعر ابن عبدون، أن يجعل من التاريخ، مادة من مواد الفن الشعري، كالعادات والأفعال، واذا، فقد وجد ابن عبدون، أمامه ثروة طائلة للأقوام والأمم الغابرة، ولكنه كان قمينا به على أن يستخدم هذه المعاني التاريخية، في قوالب شعرية مخيلة.

ولكن، أيهما كان أقوى في استغراق

هذا الجانب: المؤرخ أم الشاعر؟ أو بمعنى آخر: هل كان ابن عبدون في اقحامه هذا الميدان مسجلا لتجربة أصيلة، أو كان يقتفي آثار السابقين الأولين؟؟

إنا نرى، أن ابن عبدون، كان يجترح آفاقا توافق الواقع الأندلسي، ذلك(أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع، بل ما يجوز وقوعه، وما هو ممكن على مقتضى الرجحان أو الضرورة، فان المؤرخ والشاعر لا يختلفان، بأن ما يرويانه منظوم أم منثور، بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع، على أن الآخر يروي ما يجوز وقوعه، ومن هنا كان الشعر أقرب الى الفلسفة، وأسمى مرتبة من التاريخ، لأن الشعر أميل الى قول الكليات، على حين أن التاريخ أميل الى قول الجزئيات)(62)، وواضح، أن ذينك الاتجاهين، راجعان الى (الفن الشعري، سليل العقل العملي: العقل لانفتاحه على قوى الذات اللامتناهية، والشعر، لانفتاحه على الجمال اللامحدود، وكلاهما فوق ذلك كله، منصرف عن الأصول الكلية، والماهيات المجردة، الى التكامل في العمل الحر، أو التعبير المتقن وحده، قيمة وغاية)(63).

لاشك، أن للقيمة التاريخية في هذه القصيدة مجالها النوعي الخاص بها، تختلف فيه عن الروح الشعرية، رغم ما قد يقع بينهما من تجاذب واتفاق، ذلك أن مجال المؤرخ، يختلف عن مجال الشاعر، الذي هو الوجود كله، وبعبارة أدق، فان الاختلاف بين الشاعر والمؤرخ، هو في جوهره، الاختلاف القائم بين (عقل الطبيعة) و(عقل التجربة)، كما يوضح ذلك ابن خلدون، في مقدمته، اذ اشترط في صاحب هذا العلم، أن يعرف(قواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع، والأمصار، في السير والأخلاق، والعوائد والنحل والمذاهب، وسائر الأحوال، والاحاطة بالحاضر من ذلك،...، والقيام على أصول الدول والملل، ومبادىء ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها،وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كل خبر، وحينئذ، يعرض الخبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول)(64).

وهكذا، ينبىء هذا الحس التاريخي في هذه القصيدة، عن أبعاد واضحة في معرفة قواعد السياسة، وطبائع الموجودات، بحيث تتوافر على رؤية علمية نافذة، اصطبغت بظواهر الحياة البشرية في الاجتماع والسياسة، وهذا بحد ذاته يستظهر النزعة الطامحة، لدى ابن عبدون، بمعنى أن هذا الحس التاريخي الشعري، يستند الى قوة عقلية متميزة واعية، مؤسسة على أصول التجربة والاستقصاء، وهما(العقل التجريبي)، بمصطلح الاكتساب المعرفي.

ان هذا الحس التاريخي (نظم أخبار الأمم في لبة القريض)، قد استوقف النقاد

الأوائل، أمثال ابن بسام، كما في قوله: *(وهذه القصيدة، طويلة، سلك فيها أبو محمد طريقته في الرثاء، الى الاشارة والايماء، بمن أباده الحدثان، من ملوك الزمان، وقد نسق ذكرهم على توالي أزمانهم، واقتفى أبو محمد أثر فحول القدماء، من ضربهم الأمثال في التأبين والرثاء، بالملوك الأعزّة، وبالوعول الممتنعة في قُلل الجبال، والأسود الخادرة في الغياض، وبالنسور والعقبان والحيات في طول الأعمار، وغير ذلك مما هو في أشعارهم موجود، فأما المحدثون، فهم الى غير ذلك أميل، وربما جروا أيضا على السنن الأول)*(65)، ويقول عبد الواحد المراكشي، في الاعلاء من شأنها:(*... فلله هي من عقيلة خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتنعت، أوردتها في هذا المصنف، وان كان فيها طول مخرج عن الحد الذي رسمته، مخل بالتخليص الذي شرطته، لصحة مبانيها، ورشاقة ألفاظها، وجودة معانيها، سلك فيها أبو محمد - رحمه الله - طريقة لم يسبق اليها، وورد شرعة لم يزاحم عليها، فلذلك قل مثلها، لابل عدم، وعز نظيرها، فما تؤهمّ ولا علم*)(66).

لاشك أن ابن عبدون، قد اضطلع بمسؤولية خاصة، لأنه تجاوز حدود النظرة السطحية، الى النفاذ في أعماق التاريخ، واستجلاء حقائقه وفلسفته، فكانت هذه القصيدة، تؤذن بالتحدي الصعب للوجود المرابطي، وعلى هذا الاساس، أخذت مكانتها الرفيعة في المراثي الأندلسية، لمعاصرتها الجود المرابطي.

يقع الجزء التاريخي من القصيدة في الوسط من أجزائها الثلاثة، وهذه(الوسيطة) لهذه القيمة التاريخية، جاءت متسقة مع الوحدتين الأخريين، بحيث تبدو وحدة متكاملة، ليس لوحداتها الثلاث، أن تفتت أجزاءها، أو تذهب بروائها.

ولعل ذلك، يحفزنا الى أن نولي الاهتمام بهذا النهج الدقيق، الذي لم يسبق ابن عبدون اليه، والشرعة التي لم يزاحم عليها، فلقد ارتأيناه أخلاقيا، من الطراز الأول، من غير ابتذال، وهو الآن برجوعه الى الماضي - لا الى مبادىء القدماء وأصولهم، ولكن الى تقمص أعمالهم - يعيد الروح الى الواقع الأندلسي، لأنه يدرك اتزان الواقع وقيمه الأزلية التي تنتظمه، ومن هنا، يحاول أن يظهره - الواقع - مجسدا ببني المظفر، - على ما سيأتي الحديث عنه - حسيا وطبيعيا، من خلال روحه الفنية، فالشاعر ابن عبدون، ازاء الواقع الجديد، الذي تغير بزوال بني المظفر، لا يتعرض لهياج العاطفة الهجائية نحو المرابطين، وانما راح يسترجع صور الماضي بالاستنطاق الواعي، وقد تمسك بحماس متزايد بمثله الأعلى في الوجود، ببني المظفر - كما سنرى ذلك في موضعه أيضا -، وذلك، هو التوافق الفكري،

بتوافق(القيم) والواقع، وبتوافق(التاريخ) ـ الماضي ـ والشاعر، فالمشكلة بالنسبة لابن عبدون، هي مشكلة التغير والتحول اللذين يستند اليهما المفهوم الأساسي، وهو زوال بني المظفر.

وعلى هذا الأساس من الحس التاريخي، فان الشاعر، لم يضف على(الظاهرة التاريخية)، أية هالة أو تقديس، بل ظلت تعصف به الحجج، ويستثيره الجدل، في أبعاد هذه الظاهرة التاريخية الثلاثة: المكان والزمان والانسان، كل أولئك، قد جاءت مادته التاريخية، قائمة على وجوه الاستقصاء والاستقراء والمقارنة، بحيث شغلت حيزا كبيرا في الاستنتاج القائم على الوقائع والروايات، الأمر الذي أتاح لابن عبدون، أن يستعمل قدرته في الحفظ، وأن يستجلي الغامض، وذلك باتكاء على هذه الوحدة الشعرية التاريخية، التي استغرقت تسعة وثلاثين بيتا، من مجموع قصيدته الكلية، يقول في مستهل هذه الوحدة:(67)

*كم دولة وليت بالنصر خدمتها*
*لم تبق منها وسل ذكراك ـ من خبر*
*هوت بدارا وفلت غرب قاتله*
*وكان عضبا على الأملاك ذا أثر*
*واسترجعت من بني ساسان ما وهبت*
*ولم تدع لبني يونان من أثر*
*وألحقت أختها طسما، وعاد على*
*عاد وجرهم منها ناقض المرر*
*وما أقالت ذوي الهيئات من يمن*
*ولا أجارت ذوي الغايات من مضر*
*ومزقت سبأفي كل قاصية*
*فما التقى رائح منهم بمبتكر*
*وأنفذت في كليب حكمها، ورمت*
*مهلهلا بين سمع الأرض والبصر*

....الخ الأبيات

فالأصول التاريخية لفارس، ولبني يونان، وطسم، وجديس، وعاد، وجرهم، ذوي الهيئات، من يمن، وذوي الغايات من مضر، وكذلك أحداث العرب الأوائل، من كليب ومهلهل، والاتيان على أيامهم وحروبهم، واثبات وقائع الاسلاميين، في بدر، وما أصاب المشركين فيها من انكسار وذلة، وأخبار بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وتسجيل أحداث بني أمية وبني العباس، وقدرتهم على السلاح، وتعدد ألوان هؤلاء، من الترك والعجم والروم، أقول: كل هذا الحشد البشري، على ما فيه من اختلاف الطبائع والغايات، وبمن أباده الحدثان من ملوك الزمان، قد نسقت هذه القصيدة ذكرهم، على توالي أزمانهم،(فأما ذكر الأحوال العامة، للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أسس للمؤرخ، تبنى عليه أكثر مقاصده، وتتبين به أخباره...وذلك أن أحوال العلم، والأمم وعوائدهم ونحلهم، لاتدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال الى

حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق، والأقطار، والأزمنة والدول: سنة الله التي قد خلت في عباده)[68].

ومازال هذا الحس التاريخي، ديدن ابن عبدون ومذهبه في هذه القصيدة، يتنزل لكثرة حفظه للأحداث، منزلة المؤرخ، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على وتيرة حسه الشعري، فكانت له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة، وهو الناقد البصير، بأحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم (حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك، لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج الى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبت، يفضيان بصاحبهما الى الحق)[69].

فهو أشبه بقارىء المأساة، الذي يصر على أن المرابطين، لايمكن أن يكونوا على حق، طالما كان بنو المظفر على حق، أو أنه لا بد أن يكون المرابطون مخطئين، لأن المتوكل وولديه، الفضل والعباس محقون، فالمتوكل، كان يتمتع ـ كمايصفه عبد الواحد المراكشي ـ(بشجاعة مفرطة، وفروسية تامة، وكان لايغب الغزو، ولا يشغله عنه شيء، واتصلت مملكته، الى أن قتله المرابطون، أصحاب يوسف بن تاشفين، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبرا: ضربوا أعناقهم في غزة سنة485 هـ[70]، وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعيادا ومواسم، وكانوا ملجا لأهل الآداب، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم)[71].

ان هذا، يعني تمجيد بني المظفر، والثناء عليهم، ولا ينطوي على أي تردد من جانبه في تحمل مسؤولية أفعالهم وأخطائهم، كما ادعى المرابطون، بل على العكس، لقد أدت نظرياتهم في بني المظفر، وأمراء الطوائف على العموم، الى اتساع مشاعر تقريع الذات لا تضييقها، وذلك في اقتفاء أسبابها، في دواخل نفوس شعرائهم ممن رثوهم، وأعلوا من شأنهم بعد زوالهم، باللجوء الى الأسلوب الذي يلقي تبعاتها على الظروف الخارجية التي يعجزون عن السيطرة عليها، وهو بذلك، يُصدّق ضمنا أهمية تحديد نوع الضرورة المقصودة، وهي قوة الدهر، كما في قوله:

*كانوا شجي الدهر، فاستهوتهم خدع*

*منه بأحلام عاد في خطى الحضر*

*ويلمه من طلوب الثأر مدركه*

*منهم بأسد سراة في الوغى صبر*

فهو يدرك، رغم هذا الحس الشاعري، بأنه يتعامل مع واقع جديد يمثله المرابطون ذي ارتباط بكل ما ينطوي عليه شكل الحياة والموت، انه يتحدث عن ارادة الليالي ـ القدر ـ بالاغراء والعقاب والانتقام، وهي مفاهيم تحمل بين طياتها ما نراه مجبرا على الاعتراف به في واقع بني المظفر، لكيما يجعل زوالهم قدريا، لابد أن يتطابق مع

ارادته تماما، كما يظهر ذلك هذه الأبيات:

*كم دولة وليت بالنصر خدمتهـــا* (72)

*لم تبق منها وسل ذكراك من خبـــر*

*هوت بدارا وفلت غرب قالـــــه*

*وكان عضبا على الأملاك ذا أثـــــر* (73)

*واسترجعت من بني ساسان ماوهبت*

*ولم تدع لبني يونان من أثـــــر*

*وألحقت أختها طسما، وعاد علـــى*

*عاد وجرهم منها ناقض المـــــرر* (74)

...الخ الأبيات.

نحن نحاول أن نفهم تضمين هـذا البحث في هذه القصيدة، فان القضايا الأساسية، التي يتضمنها هذا البحث التاريخي، مرتبطة بالأخلاق، وفلسفة التفكير، وهما قضيتان تنطبقان على وقائع الحياة والأدب والتاريخ، ومن هنا، كان فهم ابن عبدون لهذه القضايا، فحاول أن يقدمها بين يدي الواقع المرابطي الجديد، ليذكرهم، بأن ما حققوه، لم يكن له الا تأثير ضئيل، بحد ذاته، انما هو نتاج تأثيرات، وقع تحتها الأقوام الغابرون. ربما نشعر أن ابن عبدون، باشارته التأريخية تلك، قد شكك في حقيقة الوجود المرابطي، كما نلاحظ، بأنه لابد وقد استشعر أبعاد هذا التجول والتغير، لكي يطلق مثل هذه الأحكام، على الأشخاص والأحداث.

وعلى ذلك، يمثل التاريخ في هذه القصيدة وجودا حقيقيا، يقتنصه الشاعر، ليعبر عن موقف يريده، تماما كما يفعل شعراء العصر الحديث، من خلال الأقنعة، التي هي شخصيات تاريخية - في الغالب - (يختبيء الشاعر وراءها)(75)، ذلك(أن الشعراء المعاصرين، يتفننون في اتخاذ القناع، للتعبير عن ذواتهم، فعمر بن الخطاب، يعبر عن الموقف من الجوع والإثم وصقر قريش، يعبر عن التحول التاريخي، ومهيار، يعبر عن التحول متخطيا التاريخ، والخيام يعبر عن الحيرة المستبدة تجاه الوجود)(76).

ولعل أوجه الاختلاف، بين فهم التاريخ في القصيدة القديمة، وأقنعة الشعر الحديث، قائمة على حقيقة التاريخ نفسه، ذلك أن الأقنعة الحديثة، تمثل(خلق أسطورة تاريخية، لا تاريخا حقيقيا)(77)، بينما القصيدة القديمة - كماهي عند ابن عبدون - تستوحي التاريخ، وتتمثله على أنه حقائق ثابته، وليس رموزا، على تباين الزمان والمكان، فالقناع من هذه الناحية(تعبير عن التضايق من التاريخ الحقيقي، بخلق بديل له(الأسطورة)، أو هو محاولة لخلق موقف درامي، بعيدا عن التحدث بضمير المتكلم، ولكن رقة الحاجز بين الأصل والقناع، تضع هذه الدرامية في أبسط حالاتها، كما أن

حضور الأصل باستمرار، من وراء الستار – يقلل التنوع في الأقنعة – على اختلاف أسمائها)(78).

ونحن نلحظ في هذا الاستعمال للتاريخ، سواء أكان استيحاء أم أقنعة، انهما شيئان لحقيقة واحدة، وهي (تداول التاريخ ودورانه)، فالاستيحاء، والأقنعة، كلاهما يوحيان بالنقد والتذكير، ولعله من أجل ذلك، كانت هذه الرؤية التاريخية في القصيدة، قديما وحديثا.

فالمشكلة الأساسية، التي يتضمنها هذا الاتجاه التاريخي،– وبضمنها الرؤية قد تخرج عن فهم المرابطين لفلسفة التاريخ –، هي الاختلاف الجوهري، بين بني المظفر والمرابطين، وبخاصة، اذا عرفنا واقع الاثنين، وفي الأحوال كلها، فان توجه جل اهتمام ابن عبدون، يقضي بالحكم على المرابطين وزيفهم، وبالاثبات لبني المظفر - كما سيأتي الحديث عن ذلك –، وهكذا، انه يشير الى طبيعة خاصة بذاتية المرابطين، ولا يقول، انه ليس لبني المظفر، مثل هذه الذاتية.

ان ما تتسم به هذه الرؤية التاريخية، في جسم القصيدة، هو أن الشاعر، كان مهتما بأن يرينا الصورة بوجهيها في آن واحد، عندما يبدوان متماثلين في الوقت نفسه، ويعد هذا الجزء من القصيدة، درسا جيدا، ليعتبر به المرابطون، وهناك من هم بحاجة أشد اليه من الآخرين.

- 1 -

**ثالثا: القصيدة وبنوالمظفر:**

لقد ابتدأت القصيدة، بالتكوين الأخلاقي - على مارأينا –، ثم التاريخ على هيئة بديعة من التدريج، بحيث يقود الى الحيز المهم في جسم هذه القصيدة، وهو بنو المظفر، في ذكرهم، وهيئاتهم، وأحوالهم.

وقد حاول ابن عبدون، في هذه القصيدة، بسط الكثير من أفكاره الرئيسية، في صورة رمزية شعرية، كما كشف فيها عن تصوره للتاريخ، ومنهجه في استقراء حوادثه، وكل ما رأيناه في هذه القصيدة، يكاد لا يخرج عن الأسباب المادية الخارجية، التي تحكم (فلسفة التاريخ)، ولكي يتجنب الغموض في هذه القصيدة، نظر الى هذه (الظاهرة التاريخية)، ممثلة في بني المظفر. وقد كان ابن عبدون - على ما رأينا –، يتمتع بحس تاريخي أصيل، ولذا، لم يجد صعوبة في أن يضفي على الفكرة المجردة، بعدا وجدانيا، وذلك باظهارها ممثلة في بني المظفر، رؤسائه السابقين.

لا شك أن القصيدة، واحدة قصائده كلها، من ناحية النضج الشعري، ومن أعمقها، وأبعدها أثرا في نشر منهجه الشعري التاريخي، ولا نظن، أن قصيدة أخرى من قصائده، كان لها مثل هذا التأثير في الخاصة والعامة، وفي الشعراء المغنيين

بالنزعة التاريخية، فقد أنشأها ابن عبدون ـ وهوملم الماما تاما بالتراث التاريخي ةالشعري ـ، واستخدم هذا التراث وفهمه على النحو الذي أراد، وفسره ووجهه الوجهة التي ترضي نزعته ومنهجه، ثم أضفى على ذلك كله، صبغة قوية من فكره وتجربته، وخرج بهذه القصيدة، التي تنعكس عليها شاعريته، كما تنعكس عليها ثقافته الواسعة، التي استمدها من العلماء والأشياخ الذين أخذ عنهم، أو الكتب التي ثقفها، ولا نجد قصيدة أخرى غيرها، تمدنا بشتى التفاصيل، عن طبيعة المرثية وفلسفتها، وذلك أنه كان يذلل الأساليب المعروفة، ويستخرج ما فيها من قوة كامنة، بأن يذهب مذهب الكناية والتعريض، والرمز، والاشارة، فابن عبدون ـ كما لا يخفى ـ، أراد أن يثبت هذه المعاني والأوصاف، خلالا لبني المظفر، عن طريق الكناية والتلويح.

- 2 -

فلنتأمل الآن، هذه الاستعمالات الشعرية، عبر أربع مجموعات متتالية، تتسق كل واحدة منها في ثلاثة أبيات، وتشمل مساحة كبيرة من الخصائص اللغوية، يقول:

(أ)

*ثلاثة مارأى السعدان مثلهم*
*والخبر ، ولو عُززا في الحوت بالقمر*
*ثلاثة مارتقى النسران حيث رقوا*
*وكل ما طار من نسر ولم يطر*
*ثلاثة كنوات الدهر منذ نأوا*
*عني، مضى الدهر، لم يربع ولم يحر*

(ب)

*أين الجلال الذي غضت مهابته*
*قلوبنا، وعيون الأنجم الزهر*
*أين الإباء الذي أرسوا قواعده*
*على دعائم من عز ومن ظفر*
*أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه*
*فلم يرد أحد منها على كدر*

(جـ)

*كانوا رواسي أرض الله ،منذ مضوا*
*عنها استطارت بمن فيها ولم تقر*
*كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت*
*هذه الخليقة بالله في سدر*
*كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خدع*
*منه بأحلام عاد في خطى الحضر*

(د)

*من لي ولا من بهم ان أظلمت نوب*
*ولم يكن ليلها يفضي الى سحر*
*من لي ولا من بهم ان عطلت سنن*
*وأخفيت ألسن الآثار والسير*
*من لي ولا من بهم ان أطبقت محن*

ان المعـــاني، التـــي تجســـدها المجموعات الأربع، تصعد دائما الى الأصل الابداعي، الذي يكمن خلف كل تلك الأبعاد الأدبية، أو الأسلوبية، التي تصور واقع بني المظفر، وهي في المجموعة الأولى، تأخذ هيئـة تـأكيد الصـورة المثاليـة، وفـي المجموعة الثانية، تنفذ الى العمق الوجداني، وفي المجموعة الثالثة، توقع كثيرا من الآثار النفسية، في القلوب، والتمكن في النفوس، وفي المجموعة الرابعة، تقف عند الإرجاء والتشويق، وتستبطن التأثر النفسي، وهـي نفسـية تبقـى مفتوحـة للفهـم المتكامل(لكليات) الحياة، لرمزية الطبيعة والفن واللغة.

تبدو المعاني واحدة في هذه المجموعات الأربع، ولكن كل مجموعة تمتاز بعدة مزايا:

فالأبيات الثلاثة الأولى، تخلق صورا مقارنة، من خلال صور الطبيعة والكون، في الزمان والمكان،(فالسعدان والنسران)، من كواكب السماء وأبراجها، ولكنهما، في الوقت ذاته، يحتملان من التأويل والارتداد الى عالم الانسان والحيوان،(فالسعدان)[79] أمرهمـــا معـــروف فـــي الـــتراث، وكذلك(النسران)[80]، فانهما من ضواري الطير، ويكاد يكون من الواضح، أن ابن عبدون، في الشخصيات التاريخية التي يمكن تأويلها، وفي الوقوف عند ضواري الطير، معنيٌ بشدة بالسماء والتراث معا، حسب نظرته الكلية، للتاريخ أو للأشياء.

أما الرمز الثالث في هذه الدائرة الرمزية. فهو الدهر الذي يمضي، ولا تمكن رؤيته، ولذلك، يأخذ بذكر الدهر، وينتحل له تسميات مختلفة، تتراوح مواقفها، وأبعاد تأثيراتها، على الدهر نفسه، والأيام والليالي والزمان، انه لون من ألوان التنصل والافلات من الدخول في عالم الواقع لدولة المرابطين، الذين كانوا وراء هذه الأحداث.

فهل لهذا التلوين في تسميات الدهر، ما يحمل على العبث في أن يجرد هذا التكرار من أية قيمة، أو مضمون، بأن يعد من زوائد الأشياء وملحقاتها؟لقد كرر شعراء كثيرون أسماء الدهر، وما برح الدهر مخيلاتهم، ولكنه ـ كما يبدو ـ أن أبعاد هذه الظاهرة وتفسيراتها، يخضعان للتجربة المتماثلة، التي عرفها أولئك الشعراء.

اذا كانت هذه الحقائق التي يعيشها الشاعر، تدعوه الى هذا الأسلوب التكراري، لمسميات الدهر، فان عمق المأساة، هو الذي يلحُّ في استدعاء الدهر، وتبيان فاعليته، فعندما يكرر الشاعر الدهر، ويكثر من ألفاظ مشتقاته، بهذه الكثافة، فانه يريد التمسك بهذ القوة المؤثرة. ولذلك، فهو يحاول الاستعاضة عن هذا الفقدان، بالإلحاح المتمثل بالتكرار، نحو قوة الدهر، لخلق وسيلة أساسية وجوهرية للتأثير.

وفي الأبيات الثلاثة الثانية، يضفي ابن عبدون عليها، رشاقة وتناسقا وتنويعا. لا

توجد في التركيب السابق، لأن هذا الأسلوب من النظر الى الاستفهام، يقتضي هذا التناسق والتنويع، في مجال(القيمة)التي عز وجودها، فـ(الجلال)و(الوفاء) كلها معان من الوجهة النظرية، أشد واقعية في الحياة، لأنها تعكس الأبعاد المتعينة على هيئة صورة أمينة للواقع المفقود، فهي في النهاية صورة ذاتية،أقرب الى الواقع الطبيعي، الذي يحاول الشاعر ايجاده، كما كان، بما يلقيه عليه من ظلال وجدانية.

أما توقفنا عند مجموعة الأبيات الثالثة، المتتالية التي تتكرر فيها الحروف والكلمات، وتكاد تتماثل، فانه يوقظ فينا هواجس متباينة، تندفع اندفاعا، نحو التقاط المعاني، وتسقطها من أجل الاستجابة، لأبعادها النفسية، والحسية، والمعنوية.

أما معنى الأبيات الثلاثة الأخيرة، فان ابن عبدون، يؤديه بمزيد من القوة والتأثير النفسي، فهو من حيث الصوت والايقاع،أشد وقعا على الأذن، فالصوت واحد، والوقع واحد، وقد كانت سيطرة حرف(من) الاستفهامية، على ابن عبدون، قوية، لأنه على المستوى الفردي، كان يحس بأن لاشيء، سوى بني المظفر، يعينونه على مواجهة الواقع الجديد، ثم ازدادت هذه السيطرة، قوة، عندما رأى الشاعر(تعطيل السنن)و(اختفاء الألسن)،و(اطباق المحن )، وكلها تعني عدمية الحياة بالنسبة للشاعر.

بيد أن (فلسفة) التركيب الشعري، في الأمثلة الأربعة المتقدمة، كما نلاحظ ـ قائمة على التركيز، حول معان بعينها، ونتائج التقديم والتأخير فيها، لم تخل من قوة التأكيد والتأثير، كما يلاحظ في اسلوب النفي(مجموعة أ)، والاستفهام (مجموعة ب)، والتقرير (مجموعة جـ)، والتحسير (مجموعة د)، فقد اشتملت على تغييرات جريئة في الترتيب، أفادت المعاني التي هدف اليها الشاعر.

- 3 -

وخلاصة القول: ان قصيدة ابن عبدون، استطاعت أن تقدم تصورات جديدة، يمكن أن تدخل نطاق (نظرية الفن)، فالأصول التي تشتملها هذه المطولة، قد توفرت على بعضها، أو أجزاء منها، قصائد الشعر العربي / مجملة، أو مجزأة، وما في هذه القصيدة من جديد، فهو محاولتها أن تطبق أفكارا بعينها ـ مما سبق ذكره ـ، على بني المظفر ـ المرثيين ـ، فتعمقت بعض الأفكار والصور، وخاصة الكلام على العنصر الانفعالي، وكذلك الكلام على الأسلوب الشعري، واشتماله على خاصتي السمو والوضوح .

وأما المقاربة بين الشعر والتاريخ ـ على ما ذكرنا ـ، فقد أصبحت استيحاء للوقائع والأحداث، ولكن ليست هذه هي كل القواعد الخاصة بالمرثية، وكما وجدنا في هذه المرثية، شيئا كبيرا من الوضوح والاستجلاء، في أدائه لكثير من أصول

الصناعة الشعرية، وللفنون المحاكية بوجه عام، نجد فيها أيضا/محاولة صادقة لفهم هذه الأصول، تمتد الى الاستعانة بأوجه أخرى من جوانب التأمل الفكري، أو الفكري التخييلي، لتلتئم مع الفهم العام للشعر. وبالجملة، فان هذه المرثية، تتحقق فيها جملة من المسائل المهمة، كمسألة الوحدة الفنية، والطول المستحسن في المراثي، وطريقة الشعر، وتنوع أساليبه، في ايقاع المعاني في النفوس، وهي أبعاد استطاعت أن تزيد دائرة تأثير هذا اللون من الشعر اتساعا، وأن تضع خطوط صورة المرثية في شيء كثير من التحديد والوضوح.

خاتمة البحث:

كانت طبيعة هذه القصيدة المطولة وآفاقها الواسعة، بين ثنائية الفن الشعري، والتاريخ، مدار الدراسة ومحورها الأساسي، ووجهة النظر هذه، هي التي حددت المنهج، فهو بحث ـ على ما رأينا ـ في مسائل تاريخية خاصة، وأخرى أدبية جمالية، فضلا عن التحدث عن الأفكار والمعاني، من حيث هي مادة للشعر، وبذلك، استطاع منهج هذا البحث، أن يستقصي هذه الأبعاد، ويكشف عن قدرة ابن عبدون في اقباله عليها، وتضمينه لها، في قصيدته، وبعض آثاره الأخرى، محاولا أن يجدد في الصناعة الشعرية، بالاعتماد على هذا النهج .

وعلى كل حال،فان ابن عبدون في اتجاهه الى هاتين النزعتين ـ التخييل والتاريخ ـ،كان يستجيب لضرورات فنية،وأخرى موضوعية،فقد فترت قوة المرثية - الى زمانه -،باقتضاء روح الشعر المتدفقة،فلم تجد بدا من أن تخرج عن ذاتها،الى اعمال الخيال في المحسوسات،كالمادة التاريخية،وعلى الرغم من ذلك،فقد حظيت القصيدة،برواج عظيم،لدى مؤرخي الأدب.

والحق،ان هذه القصيدة، رهينة بهذا الربط العجيب،بين ماهيتها وخصائصها الشعرية، والحقيقة الجمالية المتمثلة بالحسان،ذلك أن الربط بين الأثر الشعري المديد،والأثر الجمالي المحدود،يوحي من طرف خفي،بأثربني المظفر الخالد،والوجود المرابطي الزائل، وتلك هي الحقيقة التي حاولت القصيدة،أن تخفيها،على مافيها من نزعة ذاتية، يقول:(81)

*قرّطتْ آذان من فيها بفاضحة*
*على الحسان حصى الياقوت والدرر*
*سيارة في أقاصي الأرض قاطعة*
(82) *شقا شقاهدرت في البدو والحضر*
*مطاعة الأمر في الألباب قاضية*
*من المسامع،مالم يقض من وطر*

## الهوامش

(1) ترجم له عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة،بقوله:(وكان أديبا كاتبا بليغا،جيد الضبط، من أهل العناية التامة بالآداب، تاريخيا، ذاكرا نبيلا، وشرحه قصيدة أبي محمد عبد المجيد بن عبدون، في رثاء المتوكل على الله أبي بكر عمر بن محمد بن مسلمة التجيبي بن الأفطس المسمى:(كمامة الزهر وصدفة الدرر)شاهدة بنبله ومعرفته بأيام الناس وإشرافه على حوادث الزمان. وكان حيا سنة ثمان وستمائة، وتوفي بشلب). (أنظر:الذيل والتكملة ،السفر الخامس القسم الأول، تحقيق د.احسان عباس، بيروت،دار الثقافة،1965،ص21 رقم 39).

(2) راجع:ابن بسام، علي، مقدمة الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار الثقافة، بيروت،الطبعة الأولى،1399-1979، 32/1/1.

(3) ابن عبد الغفور الكلاعي، أبو القاسم محمد:احكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت،1966،ص 109.

(4) روى صاحب اليتيمة: أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف:28/2.

(5) أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي، المعروف بابن القصيرة(ت 508 هـ)، أحد رجال الفصاحة، والحائز على قصب السبق في البلاغة، كان على طريقة القدماء، من أعيان الكتاب في الدولة العبادية، ثم كتب لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.(انظر: الصلة لابن بشكوال:رقم 1253، ص569، والقلائد: 305-306. والذخيرة 239/1/2، والمغرب 350/1، والذيل والتكملة227/6).

(6) أبو القاسم محمد بن عبد الغفوربن أبي القاسم، وهو والد صاحب احكام صنعة

(7) أبو القاسم بن عبد الله الفهري، المعروف بابن الجد(ت515 هـ) من أهل التفنن في الآداب والبلاغة، له حظ من الفقه والتكلم في الحديث(انظر: الذخيرة285/1/2، والمغرب341/1،واحكام صنعة الكلام185-186، والمعجب237.

الكلام، انتقده بن خاقان في القلائد 466، بما لا يتفق ونزعته الأدبية. (انظر: الذخيرة 325/1/2، والخريدة 429/3).

(8) راجع الخبر في: احكام صنعة الكلام. ص110.

(9) أفرد له ابن بسام ترجمة مطولة في كتابه الذخيرة: 2/2/668-727.

(10) يقول ابن حزم في كتابه: جمهرة أنساب العرب 12/1 (دار الكتب العلمية بيروت) سنة 1403هـ -1982)، بعد أن يورد سلسلة نسب فهر: هؤلاء ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهم قريش، لا قريش غيرهم، ولا يكون قريشي الا منهم، ولا من ولد فهر أحد الا قريشي.

(11) ترجم له: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 2/2/668-727، وأحكام صنعة الكلام، لابن عبد الغفور الكلاعي: (ص111، 148-149)، وقلائد العقبان، للفتح بن خاقان: 1-417/2-428، والخريدة للعماد الأصفهاني: 103/2 (وكناه مرة أبا بكر ومرة أبا محمد)، وبغية الملتمس: ص539 رقم 1570 (وذكر أنه كان في حدود الأربعمائة أو نحوها، فوهم لأنه ذكره في باب من نسب الى أحد آبائه ولم يعلم اسمه)، وصلة الصلة: ص42، والتكملة: 407 (وقال ان وفاته كانت بعد 520هـ)، والمغرب: 374/1 (وهو ينقل ترجمته عن القلائد)، والرايات: ص61 رقم 38، (وذكره بالرئيس العالم الفاضل)، والصلة: القسم الثاني، ص388 رقم 836 (وصفه بالأديب المقدم، الشاعر العالم بالخبر والأثر ومعاني الحديث، وثمة اشارة الى أن الأديب الحافل أبا اسحاق ابراهيم بن... جمع أخباره وشعره، وقد أخذ ذلك عنه، ويذكر وفاته بيابرة منصرفا لزيارة من له بها سنة تسع وعشرين وخمسمائة بلا شك. وكذا على قبره)، والمعجب: ص128 وص228 (وأورد له رسالتين، أولاهما الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والثانية أخوانية الى أبي عبد الله بن أبي الخصال). والمطرب: ص127 وص180، والفوات: 388/2 (وذكر أن وفاته سنة 520هـ)، ونفح الطيب في الأجزاء: الأول والثالث والرابع والسابع في مواضع متفرقة منها.

(12) سماه ابن بشكوال في الصلة:388/2 رقم836: عبد المجيد بن عبد الله بن عبد ربه الفهري، وذكر وفاته سنة527.

(13) يابرة:(EVORA)، مدينة في غربي أندلس من كور باجة، وهي قديمة، وينسب اليها ابن عبدون اليابري الشاعر، وقد ورد ذكرها في القصيدة (القافية)لعيسى بن الوكيل المشهورة التي مدح بها علي بن القاسم بن عشرة قاضي سلا، يقول فيها:

*غريب بأرض الغرب فرّق قلبه*
*فآوت سلا فرقا ويابرة فرقا*
*اذا ما بكى أوناح لم يلف مسعدا*
*على شجوه الا الغمائم والوُرقا*

(انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق د. احسان عباس، مكتبة لبنان، سنة1975،ص615، ومعجم البلدان:424/5).

(14) المغرب: 374/1.

(15) الأستاذ الأعلم، هو امام نحاة زمانه، أبو الحجاج يوسف بن عيسى، من رجال (الصلة)و(المسهب)، وهو شارح الأشعار الست. (نفح الطيب:75/4).

(16) من أهل بطليوس، كان من أهل المعرفة بالآداب واللغات، ضابطا لهما مع خير وفضل، وتوفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة. (الصلة:ص451 رقم969).

(17) عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج، مولى بني أمية، من أهل قرطبة، امام اللغة بالأندلس غير مدافع. توفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة. (الصلة: ص365 رقم776).

(18) بهامش الأصل في كتاب الصلة:388/2 رقم836: (جمع أخباره وشعره الأديب الحافل أبو اسحاق ابراهيم بن...وقد أخذت ذلك عنه). قلت: لعل هذا الأديب الحافل هو ابن خفاجة.

(19) راجع: الصلة:388/2، وانظر:فوات الوفيات:388/2.(ونشير هنا الى أن الفتح بن خاقان، كان واحدا من مشيخة ابن عبدون، وكثيرا ماكان يروي عنه في كتاب القلائد، وانظر في ذكر هذه المشيخة: الاحاطة في أخبار غرناطة:250/4).

(20) قلائد العقيان:1-2/417-428، والترجمة موجودة في المغرب في حلى المغرب:374/1.

(21) المعجب في تلخيص أخبار المغرب:ص128.

(22) انظر: المطرب من أشعار أهل المغرب:ص23، ونفح الطيب:665/1.

(23) المطرب:ص22.

(24) المطرب:ص27.

(25) المطرب:ص180.

(26) نفح الطيب:454/3.

(27) المعجب:ص234.

(28) راجع في ضوابط حروف الزيادة: نفح الطيب:455/3-456 ، فقد أكثر الناس في انتقاء الكلمات الضابطة لها، ويروي صاحب النفح، أن ابن خروف جمع فيها اثنين وعشرين تركيبا محكيا وغير محكي، وأحسنها بيت ابن عبدون. وقد ذكر أحرف الزيادة الامام أبو محمد القاسم بن علي الحريري ـ صاحب المقامات ـ في كتابه: شرح ملحة الاعراب وبين هذه الحروف العشرة(ص173-174).

(29) كان مولده ـ فيما يروى ـ سنة507 هـ، وتوفي سنة 595 هـ، وهي السنة التي لقيه فيها المراكشي بمراكش.

(30) المعجب:ص143.

(31) المعجب:ص141-143.

(32) الحلة السيراء:ج2/106-107 .

(33) احكام صنعة الكلام:ص157.

(34) من الذين كتبوا اليه أبو محمد بن القبطرنة(الخريدة:418/2)، وكذلك أبو بكر بن عبد العزيز، المعروف بابن المرخي..(الخريدة:432/2).

(35) احكام صنعة الكلام:ص148.

(36) انظر الأبيات وتتمتها في: الذخيرة:228/1/2.

(37) الذخيرة:229/1/2.

(38) نفح الطيب:470/3-471 .

(39) نفح الطيب:471/3.

(40) هو علي بن محمد بن منصور بن نصر بن بسام، ويعرف

بالبسامي(ـ302هـ أو 303)، شاعر هجاء، انظر ترجمته: ابن خلكان:363/3، والموشح للمرزباني:ص294.

(41) محمد بن مناذر، من الشعراء الفصحاء، هجا الناس وتهتك، وأخباره كثيرة مشهورة. (الشعر والشعراء:747، والموشح:295، ومعجم الأدباء:55/19، وانظر القصة في الذخيرة:144/1/1، وتكررت في القسم الثالث، الجزء الأول من الذخيرة:498.

(42) الذخيرة:668/2/2.

(43) الذخيرة:691/2/2.

(44) البلدة: من منازل القمر، يقال انها لا نجوم فيها البتة(لسان العرب:مادة:بلد).

(45) الذخيرة:691/2/2. وغيلان: هو ذو الرمة، وفي البيت اشارة الى قوله في مية:

*أحب المكان القفر من أجل أنني*
*به أتغنى باسمها غير معجم*

(46) الذخيرة:668/2/2-669.

(47) الذخيرة:668/2/2.

(48) أولى هاتين الرسالتين، كتبها عن الأمير سير بن أبي بكر الى أمير المسلمين، يخبر فيها بفتح مدينة شنترين، وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها، فكتب ابن عبدون عنه كتابا. (المعجب:ص 228ـ232)، والرسالة الثانية كتبها الى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال، يخطب مودته، ويستدعي اخاءه.(المعجب:ص232-234).

(49) المعجب:ص141.

(50) المعجب:ص202.

(51) المعجب:ص209.

(52) نفح الطيب:487/4.

(53) رضوى وثبير:جبلان

(54) الديوان:ص269، والذخيرة:816/2/1.

(55) المغرب في حلى المغرب:21/2.

(56) نفح الطيب:483/4.

(57) قالها في تأبين الوزير الفقيه أبي مروان بن سراج، سنة تسع وثمانين وأربعمائة، أي بعد المرثية التي نحن بصددها، وقد أقامها على الموت وفلسفته، وتكرر له في مرثيته (الرائية) كثير من الألفاظ والمعاني مما في هذه المرثية، ومطلعها:

*ما منك يا موت لا واق ولا فادي*
*الحكم حكمك في القاري وفي البادي*
*ياناثم الفكر في ليل الشباب أفق*
*فصبح شيبك في أفق النهى بادي*

(راجعها في الذخيرة:1/2/816-818).

(58) الذخيرة:1/2/816.

(59) المعجب:ص129وما بعدها.

(60) المعجب:ص209.

(61) الذخيرة:2/1/478.

(62) في الشعر، لأرسطو طاليس، حققه وترجمه الدكتور شكري محمد عياد(القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر)1387هـ - 1967،ص64.

(63) الشعر بين نقاد ثلاثة.ص 154.

(64) ابن خلدون، المقدمة، 1977م، جـ1/32.

(65) الذخيرة:1/2/ص818 .

(66) المعجب:ص128-129.

(67) راجع بقية الأبيات في المعجب:ص130-138.

(68) راجع مقدمة ابن خلدون:1/320-325 .

(69) مقدمة ابن خلدون:1/291.

(70) الصواب: في سنة487 هـ، كما تذكر ذلك المصادر .

(71) المعجب:ص127-128.

(72) الضمير هنا يعود على الليالي، التي تجعل من أفعال المرابطين، أفعالا تمليها عليهم قوى خارجية، مما يثبت براءة بني المظفر، في الأخير.

(73) دارا: ملك فارس، وقاتله هو الاسكندر. والأثر بضم الهمزة والثاء: فرند السيف، والمراد أن هذا الملك ـ دارا ـ كان على أعدائه من الملوك سيفا قاطعا.

(74) طسم، وأختها جديس: من قبائل العرب البائدة، كان موطنهما باليمامة ولهما خبر مشهور في تاريخ الجاهلية. و(عاد) هي التي عناها الله سبحانه بقوله:(وأما عاد فأهلكوابريح صرصر عاتية)(سورة: الحاقة، آية:6)، وجرهم: قبيلة من أصول يمانية، هاجرت الى الحجاز، التجاعا للرزق، وأصهر اليهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام. وناقض المرر: هو الدهر، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته.(انظر في هذا الشرح).

(75) راجع:اتجاهات الشعر العربي المعاصر، للدكتور احسان عباس، سلسلة عالم المعرفة. الكويت،1987م،ص154.

(76) اتجاهات الشعر العربي المعاصر:ص155.

(77) اتجاهات الشعر العربي المعاصر:155.

(78) المصدر نفسه.

(79) السعدان: كلاهما سعود النجوم، وهي الكواكب التي يقال لها، لكل واحد منها سعد كذا، وهي عشرة أنجم، كل واحد منها سعد: أربعة منها منازل ينزل بها القمر، وهي: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وهي في برجي الجدي والدلو، وستة لا ينزل بها القمر. والسعدان أيضا: نبت ذو شوك، وهو من أطيب مراعي الابل ما دام رطبا. والسعود في قبائل العرب كثير، وأكثرها عددا: سعد بن زيد مناة بن تميم بن ضبيعة بن قيس بنتعلبة، وسعد بن قيس عيلان. وسعد بن ذبيان، وسعد بن عدي بن فرازة وغيرهم. (لسان العرب:مادة سعد).

(80) والنسران:كوكبان في السماء معروفان على التشبيه بالنسر الطائر، يقال لكل واحد منهما نسر أو النسر، ويصفونهما، فيقولون: النسر الواقع . والنسر الطائر. (لسان العرب: مادة نسر).

(81) المعجب:ص140.

(82) الشقاشق:واحدة الشقشقة:لهاة البعير، ولا تكون الا للعربي من الابل، وقيل: هو شيء كالرئة، ويخرجها البعير من فيه اذا هاج، ومنه سمي الخطباء شقاشق، شبهوا المكثار، بالبعير الكثير الهدر. واذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة: فانما يشبه بالفحل. (لسان العرب: مادة:شقشق).(قلت: هذه

الوفرة من التشبيهات في الأبيات الثلاثة، تلقي بظلال نفسية خاصة على القصيدة، تضاعف ـ عندئذ ـ الاحساس الانفعالي بها، في شدة تأثيرها على جمال الحسان المادي الزائل).

## المصادر


1 الاحاطة في أخبار غرناطة:لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة،1397هـ -1977م .

2 اتجاهات الشعر العربي المعاصر:د. احسان عباس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،1987م.

3 احكام صنعة الكلام:لابن عبدو الغفور الكلاعي، تحقيق محمد رضوان الداية،بيروت، دار الثقافة،1966م.

4 بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس:لأحمد بن يحيى بن عميرة الضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.

5 جمهرة أنساب العرب: لابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ -1982م.

6 الحلة السيراء:لأبي عبد الله محمد القضاعي، المعروف بابن الأبار، تحقيق د. حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى،1969م.

7 خريدة القصر وجريدة أهل العصر:للعماد الأصفهاني، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة،1969م.

8 ديوان ابن حمديس الصقلي:تحقيق د.احسان عباس، دار صادر، بيروت،1379هـ -1960م.

9 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:لعلي بن بسام ، تحقيق د.احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى،1399هـ - 1979م.

10 الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول:لعبد الملك المراكشي، تحقيق د. احسان عباس،بيروت، دار الثقافة، 1965م.

11 رايات المبرزين وغايات المميزين:لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. النعمان القاضي، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة،1971م.

12 الروض المعطار في أخبار الأقطار:لمحمد بن عبد المنعم

الحميري، تحقيق د.احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

13 شرح ملحة الاعراب:لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، تحقيق د. فايز الحمد، دار الأمل، اربد/ الأردن، 1412هـ -1991م.

14 الشعر بين نقاد ثلاثة:(مقالات في النقد الأدبي اختارها وترجمها وقدم لها الدكتور منح خوري)، دار الثقافة،بيروت، الطبعة الأولى، 1966م.

15 الشعر والشعراء:لابن قتيبة:تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعرف بمصر، 1387هـ -1967م.

16 الصلة:لأبي القاسم بن بشكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة،1966م.

17 في الشعر، لأرسطو طاليس، حققه وترجمه د. شكري محمد عياد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، بالقاهرة،1387هـ - 1967م.

18 فوات الوفيات:لمحمد بن شاكر الكتبي: تحقيق د.احسان عباس، دار صادر، بيروت،1973م.

19 قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: لأبي نصر الفتح بن خاقان، تحقيق د.حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، 1409 هـ -1989م.

20 لسان العرب:لابن منظور، دار لسان العرب - بيروت.

21 المطرب من أشعار أهل المغرب:لابن دحية، تحقيق ابراهيم الأبياري، و د.حامد عبد المجيد، و د. أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت،1955م.

22 المعجب في تلخيص أخبار المغرب:لعبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة،1383هـ -1963م.

23 معجم الأدباء:لياقوت الحموي، دار المستشرق، بيروت.

24 معجم البلدان: لياقوت الحموي، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1399هـ -1979م.

25 المغرب في حلى المغرب:لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعرف بمصر، الطبعة الثانية.

القاهرة،1964م.

26 مقدمة ابن خلدون:لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون. تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة،1977م.

27 الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء:لأبي عبيد الله المرزباني، وقف على طبعه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1985 هـ.الطبعة الثانية.

28 نفح الطيب:للشيخ أحمد بن محمد المقري، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت،1388 هـ - 1968م.

29 وفيات الأعيان:لأبي العباس بن خلكان، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1969م.

30 يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر(الجزء الثاني):لأبي منصور عبد الملك، الثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الثانية، 1956م.